مَجَلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

الاستدلال اللغويّ لتنزيه الله سبحانه في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام)

م.د محمد كريم جبار [1]

[1] المديرية العامة للتربية في المثنى - العراق

mahkarjab@gmail.com

ملخص. يتناولُ هذا البحث كشفَ سعي مجموعة من نصوص التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) إلى إيصال معاني النصوص إلى ساحة الإفهام، بإحراز تجرّدها من الإخلال بتنزيه الله سبحانه وتعالى، إذ لم يتخطَ كثيرٌ من تفسيرات النصوص القرآنيّة عقبةَ ملائمة تنزيه الله سبحانه وتعالى، في حين حظيت تفسيراتٌ أخرى بتخطي تلك العقبة، بما تضمّنته من معالجات لغوية ناجعة. وكانت عُدّةُ نصوص التفسير المنسوب إلى الإمام (عليه السلام) في بلوغ غايتها تلك، جعلَ الدليلَ اللغويّ طريقاً لبلوغ المعنى الذي يَدفعُ ما يفتُّ في عضد تنزيهه سبحانه وتعالى. ولا شكَّ أنّ اعتمادَ الدليل اللغويّ مسلكٌ يضمن مستوىً من الإقناع عند المتلقي لا يُمكن دفعُه ؛ فالأدلّة اللغويّة قائمةٌ على أسس مشتركة بين المتحاجّين، وليس بوسع أحدٍ منهم إنكارُها، ولا سيّما في نصوص تفاعلية كالتي يدرسها البحث. وإذ يحرص البحثُ على بيان سعي تلك النصوص إلى ملائمة معاني الألفاظ لما يناسب الله سبحانه وتعالى من تنزيه، فهو يربطُ الاستدلالَ اللغويّ في بعض نصوص التفسير بما أنطوى عليه مشهور أقوال العلماء من معالجاتٍ لغويّة تسعى لتحقيق المناسبة بين معاني ألفاظ النصوص القرآنيّة في المواضع المدروسة، وتنزيه الله سبحانه وتعالى. وجاء ذلك الربطُ بالنظر إلى أنّ الاستدلال اللغويّ المدروس في البحث يقع ضمن إطار تلك المعالجاتِ مع حفظ رجحانه عليها، بتركه النصوص بعيدةً عن التأويل وتغيير جهات ارتباط المعاني.

العدد السابع – كانون الاول – 2023 / December

مَجَلّةُ تَسْنِيمِ الدَولِيّة
لِلعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

Abstract. Many interpretations of the Qur'anic texts did not overcome an appropriate obstacle for God Almighty's exaltation، while other interpretations were able to overcome that obstacle، including the effective linguistic treatments it contained. texts to the square of comprehension، by achieving its abstraction from breaching the impartiality of God، Glory be to Him. And several texts of interpretation were in achieving their goal، making the linguistic evidence a way to reach the meaning that repels what weakens the humerus of His exaltation، Glory be to Him. There is no doubt that adopting linguistic evidence is a path that guarantees a level of persuasion for the recipient that cannot be pushed back. The linguistic evidence is based on common foundations among the disputants، and none of them can deny it، especially in interactive texts such as those studied in the research .And while the research is keen to demonstrate the endeavor of those texts to match the meanings of the words to what suits God Almighty in terms of His impartiality، it links the linguistic reasoning in some texts of interpretation to what was implied by the well-known sayings of the scholars of linguistic treatments that seek to achieve the appropriateness between the meanings of the words of the Qur'anic texts in the studied places، and His impartiality God Almighty. This connection came in view of the fact that the linguistic inference studied in the research falls within the framework of those treatments while preserving its preponderance over them، by leaving the texts far from interpretation and changing the associations of meanings.

المقدمة

الحمدُ لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمد وآله الطيبين الطاهرين، وبعدُ، فإنّ التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام) يضمّ معالجاتٍ كثيرةً للنصوص القرآنية، وقد انطوت تلك المعالجاتُ على ظواهرَ بارزة، منها ظاهرة الاستدلال اللغويّ، لأغراض مختلفة، لعلّ أهمَّها تنزيهُ الله سبحانه وتعالى، وهو مسلك يتوخّى الفهمَ السليم للقرآن الكريم، وتحويل المتلقي من حظيرة المحذور إلى سعة المُراد والمقصود. ولعلّ ما يُعلي من شأن الاستدلال عموماً، والاستدلال اللغويّ خصوصاً في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام)، أنّ التفسير قد ضمّ بين دفتيه مجموعةً كبيرة من النصوص التفاعليّة، وقد جاء شطرٌ من تلك النصوص في سياقات الاحتجاج على أهل الكتاب، وجاء الشطر الثاني إجاباتٍ عن أسئلة طُرحت على الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأهل بيته

(عليهم السلام). ومن طبيعة هذه النصوص أنّها تحفلُ بحل الإشكالات ودفع اللبس، فتتخذ من الاستدلال عموماً طريقاً لبلوغ المراد، وكان نصيب الاستدلال اللغويّ في تلك المواضع نصيباً كبيراً، وقد وظِّف عددٌ من تلك المواضع في تنزيه الله سبحانه وتعالى.

والتنزيه بوصفه "تبعيد الربّ عن أوصاف البشر"(الجرجاني، 1983م: 67، والمناوي، 1990م: 110)، هو معيارٌ تُسبر به مقبوليّة تفسيرات النصوص القرآنيّة، فموافقة تبرئة الله عن مشابهة خلقه هي العقبة الأولى، التي ينبغي للتفسيرات أن تُمتحن عندها. وقد بدا واضحاً في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) توظيفُ الاستدلال اللغويّ في تخطّي التفسيرات تلك العقبةَ.

ويختصّ الاستدلال اللغويّ بإقامة الدليل اللغويّ لإثبات المدلول(الكفوي: 114، والجرجاني، 1983م: 17)، ويجمع المدلولات التي أُثبِتت بالاعتماد على إقامة الدليل اللغويّ في المواضع التي يدرسها هذا البحث، أنّها تدفع المحذور وتُبعِد اللبسَ فيما يخصُّ تبرئةَ الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه، وتقيم تلك المواضعُ الحجّةَ ـ ومن طريق لا يُختَلف فيه ـ على أنّ المراد بالألفاظ المعاني التي يُفضي إليها ذلك الاستدلال.

ولا شكَّ أنّ اعتماد الدليل اللغويّ مسلكٌ يضمن مستوىً من الإقناع عند المتلقي لا يُمكن دفعُه ؛ لأنّ الأدلّة اللغويّة قائمةٌ على أسُسٍ مشتركة بين المتحاجّين، وليس بوسع أحدٍ منهم إنكارَها. إذ يوضّح الاستعمال اللغويّ والنظير، والأصل الاشتقاقيّ، معانيَ الألفاظ من غير لبس ولا تأويل، ولعلّ هذا مكمن اختيار توظيف الاستدلال اللغويّ لمعاني الألفاظ لأسمى أغراض العلوم الإسلامية عموماً وهو توحيد الله وتنزيهه عن مشابهة خلقه.

وفيما يأتي من البحث عرضٌ لمواضع الاستدلالات اللغويّة التي وردت في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) والتي وظِّفت لتنزيه الله سبحانه وتعالى. وللاستدلال في تلك المواضع قسمان، أحدُهما الاستدلال بالاستعمال اللغويّ والنظير، والآخرُ الاستدلال بالأصل اللغويّ. وقد عمد البحثُ إلى عرض تلك المواضع في إطار بسط مشهور أقوال العلماء فيها، وهي أقوالٌ تسعى إلى إحراز النصوصِ ملائمةَ تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابه خلقه.

1 .الاستدلال بالاستعمال اللغويّ، والنظير:

1.1. معاني الأدوات النحويّة

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

ثمّة نصوصٌ في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) منعت أنْ تكون معاني بعض الأدوات النحويّة في القرآن الكريم، هي معانيها المشهورة في المدونة النحويّة التراثيّة، وبيّنت المحذورَ حينئذٍ، وتَمثَّلَ المحذورُ في الوقوعِ في معنىً لا يناسب تنزيهَ الله سبحانه وتعالى، وقد ذكرت النصوص الواردة في التفسير معانيَ لتلك الأدوات مناسبةً لسياق الآيات الذي وردت فيه، وذكرت نصوصُ التفسير ما يفضي إليه القول بأنّ معنى الأدوات هو المعنى المشهور، من مخالفة ما ينبغي لله سبحانه وتعالى من تنزيه عن الاتّصاف بصفات خلقه، واستدلت تلك النصوصُ بالاستعمال العربيّ لنصوص مُمَاثِلة. ويُلحظ هذا الاستدلال اللغويّ المفضي إلى توجيه معنى الأدوات النحويّة توجيهاً يلائم تنزيهَ الله سبحانه وتعالى، في موضعين اثنين هما:

1.1.1. معنى (أو) الإبهام في قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾(البقرة: من الآية 74).

ذكر النحويون لحرف العطف (أو) معانيَ كثيرةً، هي الشكّ، والإبهام، والتخيير، والإباحة، والجمع المطلق كـ(الواو)، والإضراب كـ(بل)، والتقسيم، وأنّها تكون بمعنى (إلّا)، وبمعنى (إلى)، وللشرطية، والتقريب، والتبعيض (ابن هشام الانصاري، 1985م: 87 ـ 95). وتنبو نسبة بعض هذه المعاني لحرف العطف (أو) عن مناسبة سياق قوله تعالى:﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ﴾ (البقرة: من الآية 74.).

فالآية الكريمة في سياق خطاب بني إسرائيل، الذين رأوا الآيات الباهرة، وكان نبيّهم بين ظهرانَيهم، فكان الأجدرُ بهم أن تلينَ قلوبُهم، وتُذعنَ لأمر بارئها، إلّا أنّهم عاندوا وعتوا عن أمر ربّهم، فجاء تشبيه قلوبهم بالشدّة والقساوة، وقد استعمل القرآن الكريم حرف العطف (أو) بين الإخبار الأول بتشبيهها بالحجارة، والثاني (أشدّ قسوة).

ويكتنفُ تفسير هذه الآية الكريمة فيما يخصّ معنى (أو) مُحدِّدان، أحدهما نسبةُ التشبيه إلى المتكلّم، وهو الله سبحانه وتعالى، والآخر مناسبة معنى (أو) في الآية الكريمة لتنزيه الله سبحانه وتعالى. وقد تُناسبُ بعضُ المعاني ـ في ضوء ذينك المحدّدين ـ السياقَ بدرجاتٍ مختلفة من منظور تنزيه الله سبحانه وتعالى، وقد حدّد الإمام العسكريّ (عليه السلام) معنيين(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 260) قد يحظيانِ بمناسبةٍ جُزئيّة للسياق، لكنّهما قَصُرا عن بلوغ تمامِ مناسبة السياق ؛ لتفريطهما في تنزيه الله سبحانه وتعالى، والمعنيان هما الإضرابُ، والجمعُ ؛ إذ يلوي القولُ بهما عنانَ

العدد السابع – كانون الاول – December / 2023

tasnim-lb.org/index.php tasnim.ijhs@gmail.com

المعنى، فيجعله بعيداً عن تنزيه الله سبحانه وتعالى وتقديسه، وقد حدّد الإمامُ (عليه السلام) معنى (أو) في النصّ بما يتناسب مع تنزيه الله سبحانه وتعالى. واستدلّ لذلك بمثالٍ من الاستعمال اللغويّ.

وظاهرٌ في الآية الكريمة أنّ المشبِّهَ قسوةَ قلوبهم بالحجارة هو الله سبحانه وتعالى، وكان من نتائج التفريط بهذا المُحدِّد، جعلُ بعض المفسّرين التشبيهَ من المخاطَبينَ، وليس من المتكلّم، الذي هو الله سبحانه وتعالى. وكان من جرّاء ذلك أن استقام لهم جعلُ معنى(أو) في الآية الكريمة هو الإباحة، وذلك نحو ما ذهب إليه الزجّاج (ت 311هـ)، إذ قال:" ودخول (أو) ههنا لغير معنى الشكّ ولكنّها (أو) التي تأتي للإباحة... فالتأويل: اعلموا أنّ قلوب هُؤلاء إن شبّهتم قسوتها بالحجارة، فأنتم مصيبون، أو بما هو أشدُّ فأنتم مصيبون، ولا يصلحُ أنْ تكون (أو) ههنا بمعنى الواو"(الزجّاج، 1988م: 1/ 156).

وظاهرٌ أنّ تأويل الزجّاج هذا مبنيٌّ على أنّ التشبيه يكون من المخاطَبين، لا أنّ المشبِّهَ هو الله سبحانه وتعالى، وهو مسلك اتّخذه لتخريج معنى (أو) في مواضعَ أخرى من القرآن الكريم ؛ إذ يرى أنّها للإباحة. ويقدّم تأويلاً يجعل فيه المخصوصَ بمعنى (أو) هو المخاطَبين من الناس، نحو ما فعل في قوله تعالى:﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى ﴾ (النجم: 9) وقوله تعالى:﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ (الصافات: 147)، إذ قال في الموضع الأول:" فالمعنى فكان على ما تُقدّرونَه أنتم قدر قوسين أو أدنى من ذلك، كما تقول في الذي تقدّره: هذا قدر رُمْحَينِ أو أنقص من رُمْحَين أو أرجح"(الزجّاج، 1988م: 5 / 71). ونقل في الموضع الثاني عن بعض العلماء قولَهم:" معناهُ أَو يزِيدونَ فِي تَقْدِيركم أنتم إذا رآهم الرائي قال هؤلاء مائة ألف أو يزيدون على المائة " (الزجّاج، 1988م: 4 / 314).

ويبدو لنا أنّ محاولاتِ جعل التشبيه والتقدير في هذه المواضع من المخاطَبين، إنّما جاءت لإبعاد مسار معنى (أو) عن الوقوع في المحذور، وهي في حقيقتها تسعى للتفلّت من حاكميّة المُحدّدين في معنى الآية الكريمة، وما شابهها. وإذ يُحفظ لهذه المحاولات رعايةُ دفعِ أن يُنسبَ لله سبحانه من المعاني ما لا يليق به، فأنّه يُقلل من أهميتها تفريطُها في تغيير الجهة المخصوصة بمعنى (أو).

وحسناً فعل ابنُ يعيش (ت643هـ) ؛ إذ فصّل القولَ في معنى (أو) في النصوص السابقة، مع حفظ أن يكونَ المخصوص بمعنى (أو) هو المتكلّم، وهو قوله:" والأكثرُ في استعمالِ (أوْ) في الخبر أن يكون المتكلّم شاكاً... والظاهرُ من السامع أن يحملَ الكلامَ على شكّ المتكلّم، وقد يجوز أن يكون المتكلّمُ، غيرَ شاكٍّ، وإنما أراد تشكيك السامعِ بأمرِ قصدَهُ، فأبْهَمَ عليه وهو عالمُ، كقولك: (كلّمتُ أحدَ الرجُلَيْن)، و(اخترتُ أحدَ الأمرَين) تقول، وأنت عارفٌ به، ولا تُخبِر. ومنه قوله تعالى:﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، وقوله تعالى:﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾"(ابن يعيش،

2001م: 5 / 19)، وبهذا التقدير يستقيم أن يكون معنى (أو) منسوباً للمتكلّم أياً كان. وهو مُشْبهٌ لجعل السيرافي(ت368هـ)(السيرافيّ، 2008م: 3 / 428)، وابن يعيش (ابن يعيش، 2001م: 5 / 19)(أو) بمعنى الإبهام في قول لبيد (لبيد العامريّ، 2004م: 50):

تمنّى ابنتايَ أنْ يعيشَ أبُوهُما وَهلْ أنا إلّا مِنْ رَبيعةَ أو مُضَرْ

وبيّنوا أنّ المخصوص بمعنى (أو) هو المتكلّم، وأنّ معنى الإبهام قد وقع لغرض بلاغيّ في النصّ، قال السيرافيّ:"وقد علم لبيد أنّه من مضر وليس من ربيعة. وإنّما أراد: من أحد القبيلتين، وسبيلي أن أفنى كما فنوا. وليس فيما قصد من تعزية ابنتيه، وتسليتهما بالتأسي بمن فنى من هذين القبيلين فائدة في تعيين نَسَبه. بل لو زاد في الإبهام كان أبلغ فيما يريده ؛ لأنّه إذا كَثُر من يتأسّى به كان أبلغ في التعزية"(السيرافيّ، 2008م: 3 / 428).

أمّا دفعُ شبهة التناقض بين إرادة الله سبحانه وتعالى بيانَ كلامه للناس من غير غموض، ونسبة معنى (أو) في هذه الآية للإبهام، فيمكن أن يُحملَ على نحو البيان الذي قدّمه السيرافيّ، إذ قال:"إنّما خُوطِبوا على قدر ما يجري في كلامهم من إفهام بعضهم بعضاً. لعلّها أبهمت عليهم في الإخبار لعجزهم عن بلوغ حقائق الأشياء، وأنّهم يصلون منها إلى مقاربة، وقد يُبهم المتكلّم لقلة الفائدة في التفصيل، وإنْ كان عالماً "(السيرافيّ، 2008م: 3 / 428).

وقد جعل الطوسيّ (ت460هـ) عماده في الترجيح بين الآراء، ما يجمع إسناد التشبيه في الآية إلى الله سبحانه وتعالى، ورعاية تنزيهه جلّ وعلا عمّا لا يَليق به، لذا قال في خلاصة الحديث عن الآراء التي قيلت في معنى (أو) في الآية الكريمة:" وكلُّ هذه الأوجه محتمَلة وأحسنها الإبهام على المخاطَبين. ولا يجوز أن يكونَ المعنى الشكَّ ؛ لأنّ الله تعالى عالم لنفسه لا يخفى عليه خافية"(الطوسيّ: 1 / 308).

والذي يظهره نصُّ الإمام العسكريّ (عليه السلام) في تفسير قوله تعالى:﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾، هو أنّ المشبِّهَ هو الله سبحانه وتعالى، وأنّ معنى (أو) هو الإبهام، وذلك أكثر اتّساقاً مع مقصود النصّ، وأبعدُ عن تكلّف التأويلات. أمّا نسبة غير الإبهام معنىً لـ(أو) في الآية، فهو مشكل بالنظر إلى أنّ المتكلّم هو الله سبحانه، فيكون في القول بتلك المعاني نسبةُ ما لا يَصلُح أن يُنسب إلى لله تعالى، لذا نجد أنّ الإمام أشار إلى معنى (أو)، وحدّده بما لا يتنافى مع تنزيه الله سبحانه وتعالى مستدلاً بالاستعمال اللغويّ، فقال في تفسير الآية الكريمة:" أبهم على السامعين ولم يبيّن لهم، كما يقول القائل: أكلتُ خبزاً أو لحماً، وهو لا يُريد به أنّي لا أدري ما أكلتُ، بل يُريد به أن يُبهم على السامع

حتّى لا يعلمَ ماذا أكلَ، وإنْ كان يعلم أنه قد أكل " (الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 260).

ولم يقف الإمام (عليه السلام) عند حدّ بيان معنى (أو)، بل تعدّى ذلك لبيان أنّ علّة انتفاء كونها لمعنى الإضراب، أنّها لا تناسبُ تنزيه اللهِ سبحانه وتعالى، فقال:" وليس معناه بل أشدُّ قسوةً، لأنّ هذا استدراكُ غلط، وهو عزّ وجلّ يرتفع عن أن يَغلطَ في خبر، ثم يستدركَ على نفسه الغلط ؛ لأنّه العالمُ بما كان، وبما يكون، وبما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وإنّما يستدركُ الغلط على نفسه المخلوق المنقوص "(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 260).

ولم ينتهِ مسلكُ دفع معاني (أو) غير الجائزة في الآية الكريمة عند هذا الحدّ في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) ؛ فقد ذكر الإمام أنّ (أو) في الآية الكريمة ليست بمعنى (واو) الجمع ؛ للسبب نفسه، وبسط القول، فقال:" ولا يُريد به أيضاً، فهي كالحجار أو أشدّ قسوة، أي وأشدّ قسوة، لأنّ هذا تكذيبُ الأول بالثاني، لأنه قال:(فهي كالحجارة) في الشدّة لا أشدُّ منها ولا ألين"(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 260). فكان تفسير الإمام (عليه السلام) يراعي ما عليه النصّ القرآنيّ في حفظ نسبة التشبيه إلى المتكلّم، ورعاية أن تكون معاني ألفاظ الآية الكريمة مما يناسب تنزيه الله سبحانه وتعالى، وكان مُعتَمَدُ الإمام في ذلك كلّه الاستدلالَ اللغويّ لتلك المطالب القرآنيّة في النصّ الكريم.

1.1.2. (لعل) لمعنى الوجوب في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة: 21).

ذكر النحويون أنّ أشهر معاني (لعلّ) الترجي (المراديّ، 1992م: 579)، ولأنّ الأمر المرجو وقوعه بها غيرُ حتميّ، فتكون (لعلّ) لذلك غير واجبة بنظر بعضهم، لأنّ وقوع " خبرها مشكوكٌ فيه"(ابن يعيش، 2001م: 4 / 574)، وثمّةَ مسلكان سلكهما النحويون في تحديد معنى (لعلّ) في الآية الكريمة وما شاكلها.

ويحافظ المسلك الأول منهما على معنى النصّ، بنأيه عن تغيير المخصوص بمعنى (لعلّ) الوارد في النصّ وجعله للمخاطَب وليسَ للمتكلّم، ولا يتكلّف هذا المسلك تأويل النصّ بما يناسبُ الترجي الذي يلائم تنزيهَ اللهِ سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه. وعُدّةُ أصحاب هذا المسلك القولُ بأنّ (لعلّ) من الله ليست للشكّ، الذي يستلزمه الترجي. ولا ينافى ذلك جعلَ بعضهم دلالة (لعلّ) التعليلَ في مواضع مشابهة لهذا الموضع، نحو ما فعل الأخفش (ت215هـ)، إذ قال:"﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾ نحو قول الرجل لصاحبه:(افرَغ

لَعَلَّنَا نَتَغَدّى)، والمعنى:(لِنَتَغَدّى) و(حتّى نَتَغَدّى). وتقول للرجل:(اِعْمَلْ عَمَلَكَ لَعَلَّكَ تَأْخُذُ أَجْرَكَ)، أي: لِتَأْخُذَه" (الأخفش، 1990م: 2 / 443). وثمّة استعمال عربيّ فصيح ذكره الزجّاج يُثبت أنّ العربَ تستعمل (لعلّ) في بعض المواضع لغير الشكّ ؛ إذ يقولُ العربيّ مخاطِباً مَن يَعْذِلُهُ:" لَعلكَ سَتَنْدَمُ على فعلك، وهو لَا يَشكُّ في أنه يَنْدَم"(الزجّاج، 1988م: 3 / 172.).

وربط ابن يعيش الاستعمالَ القرآنيّ لـ(لعلّ) بما عليه كلام العرب، وبما يناسب تنزيه الله سبحانه وتعالى، فقال:" إلّا أنها إذا وردت في التنزيل؛ كان اللفظ على ما يتعارفه الناس، والمعنى على الإيجاب بمعنى (كَيْ)؛ لاستحالة الشكّ في أخبار القديم سبحانه. فمن ذلك قوله تعالى:﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: كَيْ تَتَّقُوا"(ابن يعيش، 2001م: 4 / 570). ومن حسنات القول بمجيء (لعلّ) لغير الشكّ في هذه النصوص القرآنيّة ـ فضلاً عن ملاءمة ما عليه اللسان العربيّ ـ هو مجانبة تغيير المخصوص بمعنى (لعلّ) من المتكلّم إلى المخاطَب، ومجانبة تأويل النصّ على النحو الذي تستقيم فيه نسبةُ معنى الترجي إلى الله سبحانه وتعالى. والظاهر أنّ معنى التعليل المنسوب إلى (لعلّ) لا يَخرجُ عن الوجوب، وإنْ عُبّر عنه بقولهم: إنّها لمعنى (كي)، أو بمعنى (اللام)، أو قيل إنّها للتعليل، فهو ناظر إلى أنّ ما بعدها خارج عن دائرة الشكّ.

أمّا المسلك الآخر فيعمد القائلون به إلى تأويل النصوص بتقديرات تدفعُ عن الله سبحانه تعالى ما لا يُناسب تنزيهه، حتى إذا استقام لهم التأويلُ، قالوا بأنّ (لعلّ) على بابها من الترجي والإشفاق، نحو ما فعل الزمخشريّ (ت538 هـ)، إذ قال في معنى (لعلّ) في الآية الكريمة:" وقد جاءت على سبيل الإطماع في مواضعَ من القرآن، ولكنْ لأنّه إطماع من كريم رحيم، إذا أطمع فعلَ ما يُطمِع فيه لا محالة، لجري إطماعه مجرى وعده المحتومِ وفاؤهُ به. قال من قال: إنّ (لعلّ) بمعنى (كى). و(لعلّ) لا تكون بمعنى (كى)، ولكنّ الحقيقة ما ألقيت إليك"(الزمخشري، 1407هـ: 1 / 92). وغير خفيّ أنّ غرض هذا التأويل استقامةُ القول بأنّ (لعلّ) لمعنى الترجي، على نحو لا يُخلّ بتنزيه الله سبحانه وتعالى.

ومن النحويين من سلك طريق التأويل لتحقيق استقامة النصّ بتغيير جهة التوقع بـ(لعلّ)، إذا جاءت من الله سبحانه وتعالى ؛ ليُمكن القولُ بأنّ معناها التوقّعُ، ولا تُنافي تنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه، فجعلوا التوقّعَ من المخاطَبين، نحو قول سيبويه (ت180هـ)، في معنى (لعلّ) في قوله تعالى:﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ (طه: 44):"اذهَبَا أنتما في رَجائكما وطَمَعِكما ومبلغكما من العلم"(سيبويه، 1988م: 1 / 331)، وفعل مثل ذلك المبرّد (ت285هـ)؛ إذ قال:" وَلَعَلَّ إِنَّمَا هِيَ للترجي وَلَا يُقَال ذَلِك لله، وَلَكِن الْمَعْنى وَالله أعلم اذهبا أَنْتُمَا على رجائكما"(المبرّد: 4 / 183).

وقد صاغ ابن الحاجب(ت646هـ) حمل تلك النصوص على تغيير جهة التوقع إلى المخاطَب بقاعدة كليّة، قال فيها:" ألفاظ التوقع إذا وردت من الله تعالى فهي محمولة على التوقع من المخاطَب كقوله تعالى:﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ﴾، بمعنى: اذهبا على توقعكما ذلك. وقوله:﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ﴾، بمعنى: أنّ التوقع منك "(ابن الحاجب، 1989م: 1 / 209). وقد أشار ابن هشام (ت 761هـ) إلى مسلك النحويين هذا في جعل التوقع من المخاطَب، في حال نفيهم أن تكون (لعلّ) لغير الشكّ، فقال عن معنى (لعلّ):" وَمن لم يُثبت ذَلِك يحملهُ على الرَّجَاء ويصرفه للمخاطبين" (ابن هشام الانصاريّ، 1985م: 379).

ولم يكن بعض المفسّرين بعيدين عن هذا المسلك في محاولة تحقيق الملاءمة بين معنى (لعلّ)، وما يناسب تنزيه الله سبحانه وتعالى، فقد اعتمد أبو حيان (ت 745هـ) في بيان معنى (لعلّ) في موضع قرآنيّ مشابه للآية الكريمة، على تغيير جهة التوقّع، فقال:" و﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾: ترجية من رسول الله، كما كان في قوله:﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ من موسى وهارون"(الأندلسيّ، 1420هـ: 8 / 430). فالترجي في الآية الكريمة عنده من المخاطَب، لا من المتكلّم. وقد بيّن أبو السعود (ت982هـ) مبناهم في جعل المعنى للمخاطَب، فقال:" وإمّا من جهة المخاطب تنزيلاً له منزلةَ المتكلّم في التلبّس التامّ بالكلام الجاري بينهما، كما في قوله سبحانه:﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يخشى﴾"(العماديّ: 1 / 59)، ولا يخفى أنّ نسبة معنى (لعلّ) إلى المخاطب إجراءٌ احترازيّ لدفع الوقوع في المحذور.

أمّا ما جاء في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام)، عن (لعلّ) في قوله تعالى:﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(البقرة: 21)، فهو قاعدةٌ كليّة في (لعلّ)، مفادُها أنّ (لعلّ) من الله غير ما هي من عبادة، فهي من الله واجبةٌ بمعنى أنّ ما بعدها واقعٌ لا مُحالة ؛ لأنّ تنزيه الله سبحانه وتعالى لا يناسبه إلّا أن تكون (لعلّ) واجبة.

وجاء تعليل الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام) مُستنداً إلى سياق الآية الكريمة، ونظيرُها من الاستعمال اللغويّ، فعِدَةُ اللهِ سبحانَه وتعالى لا بدّ من وقوعها، والإيمان بحتميّتها يُلزمُ أن يكونَ معنى (لعلّ) الوجوب لا ترجي الوقوع، قال الإمام (عليه السلام):" لعلّ من الله واجب لأنّه أكرمُ من أن يعني عبده بلا منفعة ويُطمعه في فضله ثم يُخيّبه، ألا تراه كيف قَبُحَ من عبد من عباده إذا قال لرجل: اخدمني لعلّك تنتفع بي وبخدمتي، ولعلّي أنفعك بها، فيخدمه، ثم يُخيّبه ولا ينفعه، فإن الله عزّ وجلّ أكرمُ في أفعاله، وأبعدُ من القبح في أعماله من عباده "(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 143). فالقول بأنّ (لعلّ) في الآية الكريمة لمعنى الوجوب فيه تنزيهٌ لله سبحانَه وتعالى من أن يَعِدَ عبادَه بشيءٍ ثم لا يَفِي به، ويمكن تصوّرُ عَلاقة معنى التعليل بمعنى (لعلّ) في المثال الذي ضربه الإمام (عليه

السلام)، فهو لا يُدخل معنى (لعلّ) في دائرة الشكّ. ولا يُنحّي النصوصَ عن اختصاص معنى (لعلّ) بالمتكلّم.

1.2. حذف فعل القول

ثمّة نصوصٌ قرآنيّةٌ لا يُوقف على مقاصدها إلّا بتقدير ألفاظٍ محذوفة فيها. والحذفُ في الكلام مع إرادة المحذوف من سنن العرب، وقد كَثُرَ حذفُ فعل القول في كلامهم، وقد أجمع النحويون على جوازه،(ابن مالك، 1990م: 2 / 96) قال ابن مالك (ت672هـ):"وأمّا الاستغناء بالمحكي عن القول فكثيرٌ... ومثله:﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ﴾ ومثله:﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ أي يقولون: ما نعبدهم" (ابن مالك، 1990م: 2 / 98).

وقد اسْتُعمِل الحذفُ في قوله تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾(الزمر: 67). وقد ردّ الإمام العسكريّ (عليه السلام) على مَن سأله عن هذه الآية الكريمة، بتوجيه معنى الآية الكريمة بتقدير كلام محذوف فيها، ودفع بذلك تشبيهَ اللهِ سبحانه وتعالى بمخلوقاته، لذا قال الإمام (عليه السلام) في تفسير هذه الآية:" ذلك تعيير اللهِ تبارك وتعالى لمن شبّهه بخلقه، ألا ترى أنّه قال:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾، ومعناه إذ قالوا: إنّ الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات".(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 654، والشيخ الصدوق، 1430هـ: 156)

وقد جاء فعلُ القول مذكوراً في نصّ قرآنيّ نظيرٍ لهذا النصّ ويشاركُه في الدلالة، وقد استدلّ به الإمام ؛ استئناساً وزيادةَ بيان للسائل، فقال (عليه السلام):" كما قال عزّ وجل:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾. ثم نزّه عزّ وجلّ نفسَه عن القبضة واليمين، فقال:﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾"(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 654، والشيخ الصدوق، 1430هـ: 156). ولا يناسبُ تنزيهَ اللهِ سبحانه وتعالى إلّا القولُ بالحذف في الآية الكريمة ؛ لأنّ عدَّ الكلامِ تاماً يجسّدُ اللهَ سبحانه وتعالى ويشبّهه بخلقه، مهما كانت عظمةُ القدرةِ المُتحدَّثِ عنها.

ويرى كثير من المفسّرين أنّ المقصود من الآية الكريمة وصفُ عظمة الله سبحانه وتعالى، جاعلينَ قولَه تعالى في صدر الآية:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ قرينةً على ذلك، قال الزمخشريّ:" هو تخييل لعظمة شأنه وتمثيل حسيّ. ألا ترى إلى قوله وَما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ"(الزمخشريّ، 1407هـ: 1/ 301). وقال الرازيّ (ت604هـ):" وَاعْلَمْ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا بَيَّنَ أَنَّهُمْ مَا عَظَّمُوهُ تَعْظِيماً لَائِقاً بِهِ أَرْدَفَهُ بِمَا يَدُلُّ عَلَى

كَمَالِ عَظَمَتِهِ وَنِهَايَةِ جَلَالَتِهِ، فَقَالَ: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وَالسَّماواتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ "(الرازيّ، 1420هـ: 27 / 423).

وقد اعتمد كثيرٌ من المفسّرين في تفسير الآية الكريمة بإرادة بيان عظمة الله سبحانه وتعالى على الخبر الوارد في كتب الحديث، على الرغم من كون ذلك الخبر لا يُفهم من مضمونه أنّ الآية القرآنيّة نزلت في تنزيه الله سبحانه وتعالى، وقد ذكر البخاريّ (ت256هـ) الخبرَ بهذا اللفظ:" قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلاَئِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ – صلى الله عليه وسلم – ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾" (البخاريّ، 1422هـ: 6 / 126، والسيوطيّ: 7 / 246).

ويبدو أنّ المتأملين في الخبر قد تأوّلوا مقصدَ ضحك الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فرأوه تصديقاً لقول هذا القائل، وقد كان حريّاً بهم أن يَعُدّوه دالاً على الإنكار، ويعضّدُ صدرُ الآية الكريمة أنْ يكونَ مقصدُ ضحكِه (صلّى الله عليه وآله وسلّم)الإنكارَ، وهو قوله تعالى ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾.

وتؤازر ذلك التعضيد روايةُ الخبرِ من طرق أخرى في الدر المنثور، إذ رُويَ الخبرُ بهذه الألفاظ:" مرّ يهوديّ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وهو جالس قال: كيف تقول يا أبا القاسم إذا وضع اللهُ السمواتِ على ذه، وأشار بالسبابة، والأرضين على ذه، والجبالَ على ذه. وسائر الخلق على ذه، كلُّ ذلك يشير بأصابعه؟ فأنزل الله ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾"(السيوطيّ: 7 / 246).

ويرى المجلسيّ (ت 1037هـ) أنّ التفسير الذي نُسب إلى الإمام هو الأنسب بالآية الكريمة، وأنّ التفاسير التي ترى أنّ الآية جاءت لبيان عظمة الله سبحانه وتعالى بذكر القبضة واليمين، إنّما اعتمدت على الخبر المذكور، قال:" هذا وجه حسن لم يتعرّض له المفسّرون، وقوله تعالى:﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ متصل بقوله:﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا ﴾ فيكون على تأويله (عليه السلام) القول مقدراً، أي: ما عظّموا الله حق تعظيمه، وقد قالوا: إنّ الأرض جميعاً، ويؤيّده أنّ العامة رووا أنّ يهوديّاً أتى النبي صلى الله عليه واله وذكر نحواً من ذلك فضَحِك صلّى الله عليه وآله"(المجلسيّ: 4/ 2).

وكان من نتائج تفسير الآية الكريمة ببيان عظمة قبضة الله سبحانه وتعالى ويمينه، تحفّظُ بعض المفسّرين في وصف اللهِ بهذه الأوصاف، من ذلك قول الشنقيطيّ في أضواء البيان:" وما ذكره من كون السماوات مطويات بيمينه في هذه الآية، جاء في الصحيح أيضاً عن النَّبي صلّى الله عليه وسلّم، وقد قدّمنا مِراراً أنّ الواجب في ذلك إمراره كما جاء، والتصديق به، مع اعتقاد أنّ صفة الخالق أعظم من أنْ تماثلَ صفةَ المخلوق"(الشنقيطيّ: 4 / 865). وهذا يُظهر أنّ الأنسب والأحسن لتنزيه الله سبحانه وتعالى الأخذُ بتفسير أهل البيت (عليهم السلام) للآية الكريمة، فهو يعتمد الاستدلال بالنظير، وينزّه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة مخلوقاته.

2 .الاستدلال بالأصل الذي اشتقّ منه اللفظ

من أوجه الاستدلال اللغويّ الواردة في التفسير المنسوب إلى الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، الاستدلال بالأصل الاشتقاقيّ للفظة، وقد وُظِّف ذلك الاستدلال لتنزيه الله سبحانه وتعالى عن مشابهة خلقه، وكان ذلك في حديث منسوب إلى الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، نُفيَ فيه أنْ يكونَ اللهُ سبحانه وتعالى قد اتّخذ إبراهيمَ (عليه السلام) خليلاً، كما يتخذ الناسُ أخلاء لهم، وقد جاء هذا الاستدلال في معرض الردّ على النصارى الذين احتجّوا على الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، بأنّ المسلمين يقولون: إنّ إبراهيمَ خليلُ الله، ويُنكرون أنْ يقولَ النصارى: إنّ عيسى ابنُ الله، فجاء ردُّ الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) لدحض حجتهم مستدلاً بالأصل اللغويّ للفظ (خليل)، فأرجع لفظ (خليل) إلى أصلين يُلائمان عبوديّةَ إبراهيم (عليه السلام) لله سبحانه وتعالى، فهما يبينان انقطاع إبراهيم (عليه السلام) إلى الله تعالى، وفاقته وحاجته إليه.

وقد علّل الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) الاختلافَ بين بُنُوّةِ عيسى (عليه السلام) المزعومةِ، وخُلّةِ إبراهيم (عليه السلام)، فقال:" إنّهما لم يشتبها لأنّ قولَنا: إنّ إبراهيم خليلُ الله، فإنّما هو مشتَقٌ من الخَلّة، أو الخُلّة: فأمّا الخَلّة فإنّما معناها الفقرُ والفاقةُ، فقد كان خليلاً إلى ربّه أي فقيراً، وإليه منقطعاً، وعن غيره متعفّفاً معرضاً مستغنياً " (الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ: 471). وهذا معنىً يلائم عبوديّةَ إبراهيم (عليه السلام) لله سبحانه وتعالى، ولا يُنافى تنزيهَ الله سبحانه وتعالى.

وقد ذكرت كتب اللغة هذا الأصلَ للفظة (الخليل)؛ فقد ورد في معجم العين قول الخليل (ت175هـ):"والخليلُ: الفقير الذي أصابته ضارورة في ماله، وغير ذلك"(الفراهيديّ: 4 / 141)، وقال الزجّاج:"وقيل أيضاً الخليل الفقير، فجائز أن يكون فقير اللّه، أي الذي لم يَجْعَلْ فقره وفاقته، إلّا إلى الله

مَجلّةُ تَسْنِيمِ الدَوليّة
للعُلومِ الإنسانيّةِ والاجتماعيّةِ والقانونيّةِ
Print ISSN: 2791-2248
Online ISSN: 2791-2256

العدد السابع – كانون الاول – December / 2023

مخلصاً في ذلك"(الزجّاج، 1988م: 2 / 112). وجعلوا منه قولَ زهير(زهير بن أبي سلمى، 1988م: 115):

وإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مسألةٍ يقولُ: لا غائبٌ مالي ولا حَرِمُ

وجاء في المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل:" خُلَّ الرجلُ ـ للمفعول: افتقر وذهب ماله، وكذا أخِلّ به ـ للمفعول، فَرَغَتْ حوزته، فهو مخَل ومُختَل وخَلِيلْ، وأخلّ أي: مُعْدم فقير محتاج "(محمد حسن حسن جبل، 2010م: 1 / 588). فتوجيه معنى (الخليل) في حديث الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) معتمِدٌ على الاستدلال اللغويّ بالأصل الذي اشتُقت منه الكلمةُ، وهو من (الخَلة) ـ بالفتح ـ مناسبٌ لعبودية إبراهيم (عليه السلام) لله سبحانه وتعالى.

ويقوّي هذا الاستدلال ما رُوي عن الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، في سبب تسمية إبراهيم (عليه السلام) خليلَ الله، إذ روي أنه قال:" وذلك لمّا أريد قذفه في النار، فرُميَ به في المنجنيق، فبعث الله تعالى جبرئيل (عليه السلام) وقال له: أدرك عبدي. فجاءه فلقيه في الهواء، فقال: كلّفني ما بدا لك، فقد بعثني اللهُ لنصرتك. فقال: بل حسبيَ اللهُ ونعم الوكيل، إنّي لا أسألُ غيرَه، ولا حاجةَ لي إلّا إليه، فسمّاه خليله، أي: فقيره ومحتاجه، والمنقطعُ إليه عمّن سواه "(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ:471، والمجلسيّ: 9 / 260).

وبالاستدلال نفسِه دفعَ الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) المعنى غيرَ المراد، باعتماد أصلٍ اشتقاقيّ ثانٍ للفظة، ذكره في قوله (صلّى الله عليه وآله وسلّم):" وإذا جُعل معنى ذلك من الخُلّة وهو أنّه قد تخلّل به معانيه، ووقف على أسراره، لم يقف عليها غيره، كان معناه العالمَ به، وبأموره"(الإمام الحسن العسكريّ (عليه السلام)، 1433هـ:471). وعلى هذا يكون اشتقاق لفظ (الخليل) من هذا الأصل قد يُوقع في المحذور، ويكون ذلك عند القول بأنّ الخُلّة هي من التداخُل بين شيئين(الأزهري، 2001م: 6 / 303، وابن منظور، 1414هـ: 11 / 217)، وقد بيّن الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) حدودَ المعنى المحذور، فقال:" فإنّ الخُلّة من تخلّلِ الودِّ نفسَه ومخالطته... والمحبّةُ: البلوغ بالودّ إلى حبّة القلب، من قولهم: حببته: إذا أصبتُ حبّةَ قلبِه، لكنْ إذا اسْتُعملت المحبّةُ في الله فالمرادُ بها مجرّد الإحسان، وكذا الخُلّة، فإن جاز في أحد اللّفظين جاز في الآخر، فأمّا أن يُراد بالحبّ حبّة القلب، والخُلّة التّخلّل، فحاشا له سبحانه أن يُراد فيه ذلك"(الأصفهانيّ، 1412هـ: 291).

ولا يمكنُ أن يُعدَّ المعنى من سدّ الخَلَل؛ لأنّه لا يناسب الله سبحانه وتعالى، وإلى ذلك أشار الرازيّ بقوله:" الخليل هو الذي يسدّ خللَك كما تسدّ خللَه، وهذا القول ضعيفٌ لأنّ إبراهيم (عليه السلام) لمّا

tasnim-lb.org/index.php tasnim.ijhs@gmail.com

كان خليلاً مع الله امتنع أنْ يقالَ: إنّه يسدُّ الخللَ، ومن هاهنا علمنا أنّه لا يمكن تفسير الخليل بذلك "(الرازيّ، 1420هـ: 11 / 231).

لذا يرى الباحث أنّ معنى لفظ (خليل) إذا كان مشتقاً من (الخُلّة)، فهو محمول على المعنى المجازي الذي ذكره الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، وهو علم الله سبحانه بإبراهيم (عليه السلام) وبأموره. وقد ذهب بعض المفسّرين إلى أنّ مجازَه تخلّلُ" المعرفة جميع أجزائه من حيث ما هو مركّب، فلم يبقَ جوهرٌ فردٌ إلّا وقد حلّت فيه معرفةُ ربّه عزّ وجلّ، فهو عارفُ به بكلّ جزءٍ منه"(الآلوسيّ، 1415هـ: 3 / 152).

ولعلّ الاختصاصَ هو المعنى المناسب للفظ (الخليل)، وهو الذي رجّحه النحّاس(ت 338هـ)، واستدلّ عليه بحديث نبويّ شريف، قال:" ومِن أحسنِ ما قِيل فيه أنّ الخليل المختصُّ اختصَّه اللهُ جلّ وعزّ، في وقته للرسالة. والدليلُ على هذا قولُ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:(وقد اتّخذ اللهُ عزّ وجلّ صاحبَكم خليلاً) يعني نفسه صلّى الله عليه وسلّم)"(النحّاس، 1421هـ: 240، ومسلم: 7 / 108). وذهب إلى ذلك أيضاً أبو هِلال العسكريّ (ت395هـ) في تفريقه بين الخُلّة والصداقة ؛ إذ قال:" والخُلّة الِاخْتِصَاص بالتكريم وَلِهَذَا قيل إِبْرَاهِيمُ خَلِيلُ الله ؛ لاخْتِصَاص اللهِ إِيَّاه بالرسالة "(أبو هلال العسكريّ: 285)، وبالنظر إلى ذلك فلفظ(الخليل) يدلّ على "مقام جليل لسيدنا إبراهيم، أنْ يُلْقِي أزِمّة أمورهِ كلّها إلى الله، وأن تكون أمورُه كلُّها بعين الله ورعايته "(محمد حسن حسن جبل، 2010م.)، ولا يُنافي هذا المقام ما عليه إبراهيم (عليه السلام) من عبوديّة لله سبحانه وتعالى.

أمّا البُنُوّةُ التي نسبها النصارى إلى عيسى (عليه السلام)، فهي لا تناسبُ تنزيهَ الله سبحانه وتعالى بالمعنى الحقيقيّ للبُنُوّة، ولا بالمعنى المجازيّ لها(الطوسيّ: 3 / 342). بخلاف ما عليه معنى الخُلّة، فالانقطاع بتفويض كلّ الأمور إلى الله هو شرط الخُلّة، وهي درجةٌ قد يبلغُها العبدُ، فيكون خليلاً لله، وذلك لا يُنافي تنزيهَ الله. أمّا الابنُ فلا تنقطع نسبتُه عن والده وإنْ لم ينقطعْ إليه، وقد بيّن ذلك الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم)، فقال:" ولا يوجبُ ذلك تشبيهَ الله بخلقه، ألا ترونَ أنّه إذا لم ينقطعْ إليه لم يكن خليلُه ؟ وإذا لم يعلمْ بأسراره لم يكن خليلُه ؟ وإنّ مَن يلدهُ الرجلُ وإنْ أهانَه، وأقصاه، لم يخرجْ عن أن يكونَ ولدَه ؟"(التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكريّ (عليهم السلام): 471).

وبالاعتماد على الأصل اللغويّ للفظة استدلّ الرسول الكريم (صلّى الله عليه وآله وسلّم) على أنّ معنى (الخليل) في قول المسلمين:(إبراهيم خليل الله)، هو المعنى الحقيقيّ للفظ، أو المعنى المجازيّ، ولا ينافي تنزيهَ الله سبحانه وتعالى وتقديسه، منافاةَ قولِ النصارى:(إنّ عيسى ابنُ الله).

الخاتمة

أظهرت المواضع المدروسة في البحث أنّ نصوص التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) تُعلي حقيقةً مفادُها أنّ الاستعمالَ القرآنيّ للألفاظ هو الذي يحدّد معانيها، وأنّ بعضَ القيود التي جاء بها تقعيد اللغويين لا تلائم سياقات النصوص القرآنيّة، وإنْ ضَمِنَتْ تلك القيود للغويين استقامةَ القواعدِ التي وضعوها.

وقد أظهرت دراسة تلك المواضع أنّ في الاستعانة بالدليل اللغوي مندوحةً عن وقوع التفسيرات في مزلقِ مجانبة تنزيه الله سبحانه وتعالى. وكان للاستدلال اللغويّ ـ بوصفه معالجة لغوية ـ الحظوةُ في إحراز الملاءمة بين معاني الألفاظ وسياقات النصوص التي جاءت فيها، في حين لم تَضمِنْ المعالجات الأخَر تلك الملاءمة، ولم تحفظ للنصوص تماسُكَها.

وبذلك تكون نصوص التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ (عليه السلام) قد جمعت خصلتين، إحداهما تبنّي القولِ بمعانٍ لألفاظ القرآن الكريم تبرّئُ اللهَ عن مشابهة خلقه، والأخرى الحفاظُ على النصوص بعيدةً عن التأويلات التي تغيّر جهة المعنى، في حين انزلقت تفسيراتٌ إلى أقوال لا تناسب تنزيه الله سبحانه وتعالى، وراحت أخرى تستعين بالتأويل لتحقيق الملاءمة بين معاني الألفاظ وتنزيه الله سبحانه وتعالى.

المصادر

القرآن الكريم

[1] ابن شلبي، عبد الجليل عبده. (1988). أبو إسحاق الزجاج: معاني القرآن وإعرابه، ط1، بيروت: عالم الكتب.

[2] درويش، عدنان، والمصري، محمد. (1959). أبو البقاء الكفوي: الكليات، بيروت: مؤسسة الرسالة.

[3] قراءة، هدى محمود. (1990). أبو الحسن الأخفش: معاني القرآن، ط1، القاهرة: مكتبة الخانجي.

[4] الحسيني، محمد عبد الخالق. (سنة النشر غير معلومة). أبو حسين مسلم بن الحجّاج: صحيح مسلم، بيروت: دار الجيل.

[5] العمادي، أبو السعود. (سنة النشر غير معلومة). إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[6] عضيمة، محمد عبد الخالق. (سنة النشر غير معلومة). أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد: المقتضب، بيروت: عالم الكتب.

[7] الزمخشري، أبو قاسم محمود بن عمرو. (1407هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، ط3، بيروت: دار الكتاب العربي.

[8] الخانجي، عبد السلام محمد هارون. (1988). أبو بشر عمرو بن عثمان: كتاب سيبويه، ط3، القاهرة: مكتبة الخانجي.

[9] السيوطيّ، أبو بكر. (سنة النشر غير معلومة). الدر المنثور في التفسير بالمأثور، بيروت: دار الفكر.

[10] النحاس، أبو جعفر. (1421هـ). إعراب القرآن، تحقيق عبد المنعم خليل إبراهيم، ط1، دار الكتب العلمية بيروت.

[11] الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن. (سنة النشر غير معلومة). التبيان في تفسير القرآن، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[12] الشيخ الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي. (1430هـ). التوحيد، تصحيح هاشم الحسيني الطهراني، ط10، قم: مؤسسة النشر الإسلامي.

[13] الآلوسي، جمال الدين. (1420هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

[14] السيرافي، أبو سعيد. (2008). شرح كتاب سيبويه، تحقيق أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، ط1، بيروت: دار الكتب العلميّة.

[15] الجرجاني، الشريف. (1983). التعريفات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.

[16] الرازي، فخر الدين. (1420هـ). مفاتيح الغيب، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.

[17] الأنصاريّ، عبد الله بن يوسف ابن هشام. (1985). مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق مازن المبارك ومحمد علي حمد، ط6، دمشق: دار الفكر.

[18] الجرجاني، علي بن محمد. (1983). التعريفات، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.
[19] الرازي، فخر الدين. (سنة النشر غير معلومة). مفاتيح الغيب، ط3، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
[20] العسكريّ، أبو محمد الحسن بن علي. (1433هـ). التفسير المنسوب إلى الإمام أبي محمد الحسن بن علي العسكريّ (عليهم السلام)، ط2، قم المقدّسة: مؤسسة الإمام المهدي (عليه السلام).
[21] ابن منظور الأفريقيّ، جمال الدين. (1414هـ). لسان العرب، ط3، بيروت: دار صادر.
[22] الأصفهاني، الراغب. (1412هـ). المفردات في غريب القرآن، ط1، بيروت: دار القلم.
[23] بديع يعقوب، عميل. (2001). يعيش بن علي بن يعيش: شرح المفصّل، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية.